اسلوب وجودها الخاص. طريقة الوجود هذه، المؤسسة على استحالة العودة الى الخاص المنفصل، هي ما نسميه «العيش المشترك». لذا نقول بأن العيش المشترك هو أساس وجود لبنان. إنه مبرر وجوده في هذا العالم، ومعنى فرادته في منطقة قامت دولها على العصبية الوطنية والقومية.

في النمط الحضاري اللبناني

«هذا العيش معا ارسى قواعد «نمط حضاري» لم يكن من صنع طائفة بعينها، وإنما نتيجة الطبيعة المركبة للهوية اللبنانية. وهو ما أتاح للبنان، قبل الحرب، أن يقدم مساهمة حقيقية في سعي الحضارة العالمية نحو بيئة إنسانية افضل. ذلك انه منح فكرة «التسوية» – وهي قاعدة أي اجتماع انساني – بُعدًا قلما تم بلوغه حتى ذلك الوقت، مطورًا اسلوب حياة لم يكن من السهل تحقيقه في مكان آخر. هذا «النمط الحضاري» الذي – ويا للاسف – لم يدرك اللبنانيون اهميته قبل الحرب، اقتضى توفر درجة عالية من التسامح، ساهمت في استبعاد عمليات الدمج القسري التي كانت جاريةً على قدمٍ وساق في سائر المنطقة.»

وهنا يسجل سمير فرنجية تقديره لشهادة المدير العام الاسبق لمنظمة اليونيسكو، René Maheu، الذي كتب مقالا عن هذا «النمط الحضاري» بعد نحو شهرين من تدمير وسط بيروت (جريدة لوموند، ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٥)، جاء فيه: «قدم لبنان الحديث مثلًا على نمط حضاري نابع مباشرة من بنيته المركبة. فالتسامح الديني والأيديولوجي الذي كان سائدًا فيه حتى عهد قريب، والاحترام المتبادل، والقبول بتنوع المفاهيم والعادات – وهو تنوع مطلوب بوصفه مصدر غنى

وإثراء – والحث الدائم على تبادل الافكار، والميل الى التفاهم، وتلك الحكمة الفطرية التي كانت تجعل من المواجهات الحادة لحظةً يواكبها البحث عن تسويات عملية تؤدي – إن لم يكن الى تفاهم حقيقي، فعلى الاقل – الى طريقةٍ مرضيةٍ للعيش، وحرية التعبير التي تجعل اي حوار ممكنًا... واخيرًا الانفتاحُ على العالم والدعوة الى العالمية – وهو ما مهدت له التجربة اليومية لمجتمع شديد التنوع... كل هذه السمات المرتبطة بجوهر الحضارة الانسانية هي معالم نادرة، كنا متأكدين من وجودها بوفرة في هذا البلد، ولا يجوز ان نقبل، وببساطة، رؤية النبع ينضب!».

ويعود سمير فرنجية مرة اخرى الى اليزابت بيكار، ليأخذ من كلامها شهادة مكملة للسياق ذاته: «ولقد كان هذا النمط الحضاري قد بدأ يولّد، قبل الحرب، سلوكيات «مدنية» تمثلت في ظهور احزاب سياسية غير طائفية، وفي تعدد الزيجات المختلطة، واتساع مساحات السكن المختلط، فضلًا عن الازهار الاقتصادي التجاري والمصرفي الذي لا يعرف الحدود الطائفية.»

* * *

ما تحدث عنه سمير فرنجية حتى الآن، من:

- إعادة النظر في فهمنا للهوية اللبنانية، بوصفها هوية مركبة، غيراختزالية لمكوناتها، وغير قابلة للاختزال في أحد تلك المكونات؛
- إعادة النظر في فهمنا للعقد الوطني، او الميثاق الوطني، بوصفه لاحقًا على عيش مشترك، كان قائمًا بالفعل، وبالتالي لم يترتب عليه عيش مشترك جديد، وإنما جاء ليؤكد التمسك بما كان قائما... فهو بالتالي نوع من «العقود الطبيعية» في المجتمعات؛